وقفة

عبدالنبي الشعلة abdulnabi.alshoala@albiladpress.com

حيــن يصبــح الشعــر سلاحًــا ذا حدّيــن

يُعدّ الشعر، وخصوصًا عند العرب، واحدًا من أهم عناصر القوة الناعمة وأكثرها رسوخًا وتأثيرًا؛ فقد كان منذ أقدم العصور سجلًا للذاكرة، ولسانًا للقبيلة والأمة، ومنبرًا للدفاع عن القيم والكرامة والهوية. وفي أوقات الأزمات والتحديات الأمنية، لا تتراجع أهمية الشعر والثقافة، بل ربما تتضاعف؛ لأن الشعوب لا تحمي أوطانها بالسلاح والتحالفات وحدها، وإنما تحميها أيضًا بالكلمة التي تجمع ولا تفرّق، وتبني الوعي ولا تستثير الغرائز.

وقبل فترة ليست بالطويلة، كتبت مقالًا عن زيارتي مقهى "سلافيا" في مدينة براغ، عاصمة جمهورية التشيك، الذي كان يرتاده بانتظام الشاعر العراقي العربي الكبير محمد مهدي الجواهري، خلال سنوات منفاه وإقامته في تلك المدينة. وذكرت أن الجواهري كتب في براغ بعض أجمل قصائده وأكثرها تعبيرًا عن الحنين إلى العراق، وأن الشعر ظل عنده مرتبطًا بالوطن والحرية والعدالة، منذ أن فقد شقيقه جعفر في "وثبة يناير" عام 1948، فخلّده بقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

"أتعلمُ أم أنتَ لا تعلمُ
بأنَّ جراحَ الضحايا فمُ"

وقد ظننت، حين نشرت ذلك المقال، أنه لن يحظى باهتمام يُذكر، والناس منشغلون بما تتعرض له منطقتنا من أخطار واعتداءات وابتزاز وتهديد للأمن والاستقرار، غير أن ظني لم يكن في محله؛ فقد أثار المقال اهتمام عدد من المثقفين والقراء، وتلقيت حوله تعليقات تناولت الجواهري وشعره ومواقفه السياسية من زوايا متعددة، كان بعضها نقديًا وقاسيًا.

فقد وضعه بعض المعلقين في زمرة الشعراء الذين لم يلتزموا دائمًا بالقيم التي تغنوا بها، وإنما تنقلوا بقصائدهم بين الحكام والعهود، يمدحون من يقربهم ويهجون من يبعدهم. واستحضر بعضهم في ذلك سيرة المتنبي، الذي تنقل بين بلاطات عصره، ومدح من أحسن إليه، ثم انقلب بالهجاء على من خيّب طموحه أو حرمه العطاء.

واستند أصحاب هذا الرأي إلى أن الجواهري عمل مدة في البلاط الملكي العراقي، وأشاد في بعض شعره برجالات العهد الملكي، ثم رحّب بحركة الرابع عشر من يوليو 1958 التي أسقطت الملكية في مشهد بالغ العنف والدموية، ومدح قائدها عبدالكريم قاسم، قبل أن يختلف معه ويغادر العراق. ثم عاد في عهد البعث، وأقام صلات مع عدد من رموزه، ومن بينهم صالح مهدي عماش، أحد أبرز قادته العسكريين والسياسيين. ومن بين ما نُسب إلى الجواهري في هذا السياق البيت الشهير:

"بعثٌ تشيّده الجماجم والدمُ
تتهدّم الدنيا ولا يتهدّمُ"

وهو بيت حافل بمفردات القوة والدماء والجماجم والهدم، ويختزل جانبًا من اللغة التي رافقت الانقلابات والصراعات العقائدية في العراق والمنطقة خلال تلك المرحلة. غير أن البحث والتقصي يكشفان أن نسبة هذا البيت إلى الجواهري غير صحيحة، وأنه يُنسب في روايات متداولة إلى صالح مهدي عماش، بينما تنسبه روايات أخرى إلى الشاعر العراقي عبدالمحسن عقراوي. ولذلك لا يجوز تحميل الجواهري مسؤولية بيت لم تثبت نسبته إليه، مهما تكن مواقفنا من تقلباته السياسية أو من علاقته بالحكام والأنظمة.

لكن تبرئة الجواهري من هذا البيت لا تعني تبرئته تمامًا من استخدام الشعر في التحريض على الشدة والبطش. ففي قصيدته الشهيرة "تحرك اللحد"، التي ألقاها أمام عبدالكريم قاسم بعد سقوط الحكم الملكي، خاطبه قائلًا:

"أقــدمْ فأنتَ على الإقــدام منطبِعٌ
وابطُشْ فأنتَ على التنكيل مقتدرُ"

ثم قال:

"فضيّق الحبلَ واشددْ من خناقهمُ
فربما كان في إرخائه ضررُ"

بل مضى أبعد من ذلك حين دعاه إلى ألا تأخذه رأفة بخصوم النظام الجديد. وهي أبيات لا يمكن قراءتها اليوم من دون التوقف أمام لغتها الحادة، وما تحمله من دعوة صريحة إلى البطش والتنكيل وتضييق الخناق، حتى وإن كان الشاعر يرى، في ظرفها التاريخي، أن الجمهورية الوليدة تتعرض لمؤامرات داخلية وخارجية، وأن خصومها يسعون إلى إسقاطها.

غير أن فهم الظروف التي قيلت فيها القصيدة لا يعني تبرير مضمونها. فالشاعر، مهما بلغ غضبه، يظل مسؤولًا عن كلمته، ولا سيما حين تكون له مكانة الجواهري وتأثيره. فالكلمة التي تخرج من شاعر كبير لا تبقى حبيسة الديوان، وإنما تتحول إلى موقف عام، وقد تصبح غطاءً أدبيًا للانتقام أو الإقصاء أو العنف.

وهنا تكمن المفارقة في تجربة الجواهري؛ فهو الشاعر الذي نطق بلسان الضحايا، وخلّد الحرية والعدالة والوطن، وهو نفسه الذي اندفع في لحظة سياسية محتدمة إلى استخدام لغة قاسية تناقض، في جانب منها، القيم الإنسانية التي دافع عنها. وقد لا يكون هذا التناقض خاصًا به وحده، بل هو جزء من مأزق المثقف العربي حين تقترب منه السلطة، أو حين تجرفه الحماسة الأيديولوجية فيتحول من ضمير إنساني ناصح للحاكم إلى صوت يحرضه.

وفي أدق المراحل الأمنية التي تمر بها منطقتنا، نحن أحوج ما نكون إلى رجال شعر وثقافة وإعلام يرفعون مناعة المجتمع، ويعززون وحدته وثقته بنفسه، ويحمون حقه في الأمن والكرامة، من غير تحريض أو انتقام. فالشعر سلاح ذو حدّين: قد يكون جسرًا للمحبة والوعي، وقد يصبح وقودًا للكراهية والعنف. وتبقى عظمة الشاعر الحقيقية ليست في قوة عبارته وجزالة قصيدته وحدهما، بل في قدرته على أن يجعل كلمته نصيرًا للإنسان، لا مبررًا للبطش به.

حوار البلاد

الخطاب الديني بحاجة إلى لغة حوار لا وصاية... رئيس جامعة ومعهد العدالة والحكمة الأميركي لـ "البلاد":

الفراغ الفكري يفتح المجال أمام الجماعات الراديكالية لاستقطاب الشباب

البلاد | حسن عبدالرسول

قال رئيس جامعة ومعهد العدالة والحكمة في الولايات المتحدة الأميركية د. محمود الخزاعي إن استعادة المؤسسات الدينية لدورها الحقيقي تبدأ من مراجعةٍ صادقة وجريئة للذات، مؤكداً أن أزمة التطرف في جوهرها ليست أزمة دين، بل أزمة فهمٍ مشوَّه يُعيد تفسير النصوص بمنطق الإقصاء والعنف. وأوضح في حوارٍ مع "البلاد" تناول قضايا التطرف وخطاب الكراهية والمواطنة والتعايش، أن المؤسسات الدينية مطالبة اليوم باستعادة استقلاليتها وتجديد خطابها والانخراط الميداني مع الشباب، محذراً من أن الفراغ الفكري والاجتماعي يفتح المجال أمام الجماعات الراديكالية لاستقطاب الأجيال الجديدة. وشدد على أن التعليم والإعلام يمثلان خط الدفاع الأول في بناء ثقافة التنوع وقبول الآخر، فيما تبقى المواطنة الحديثة القائمة على المساواة واحترام الهويات المتعددة أساساً لحماية المجتمعات من الانقسام والتطرف. وفيما يلي نصّ اللقاء كاملاً:

حماية الدين

» كيف تستعيد المؤسسات الدينية دورها الحقيقي في حماية الدين من التوظيف السياسي أو الإيدلوجيا والتطرف؟

إنّ استعادة المؤسسات الدينية لدورها الحقيقي تبدأ من مراجعة صادقة وجريئة للذات، قبل أن تكون مراجعةً للآخر، فالمؤسسة الدينية التي تفقد استقلاليتها، وتتحوّل إلى أداةٍ في يد الجماعات الراديكالية، تفقد في الوقت ذاته مصداقيتها لدى الناس، وتُخلي الساحة أمام المتطرفين الذين يملؤون الفراغ بخطابٍ متشدد، والاستعادة الحقيقية تقوم على 3 محاور، منها الاستقلالية المؤسسية بحيث أن تتمتع المؤسسات الدينية باستقلالية في إصدار الفتوى والموقف، بعيداً عن الإملاءات السياسية الخارجية أو الضغوط الأيديولوجية، لأن المؤسسة الدينية التي تُستدعى فقط حين تحتاجها السلطة، فقدت قيمتها الروحية والمجتمعية، والتجديد في الخطاب، حيث الخروج من لغة الوصاية إلى لغة الحوار، ومن التحريم إلى التأطير الأخلاقي، ومن مخاطبة العواطف إلى مخاطبة العقل، حيث الشباب اليوم يحتاج إلى علماء يفهمون واقعهم، لا فقط إلى علماء يحفظون كتب الأقدمين.

وبالنسبة إلى الحضور الميداني: لا يكفي أن تُصدر المؤسسات بياناتٍ تدين التطرف من على بُعد؛ المطلوب الانخراط في المجتمع، والتواجد في الأحياء الهشة، والتعامل مع الشباب قبل أن يصل إليه المتطرفون.

مسؤولية المفكرين

» هل يعتبر التطرف أزمة "فهم ديني" وما مسؤولية علماء الدين والمفكرين؟

نعم، وبامتياز، أزمة التطرف في جوهرها أزمةُ فهمٍ لا أزمةُ دين، فالأديان الكبرى في تاريخها الممتد كانت منابعَ للحضارة والعلم والتسامح والبناء، الأزمة تحدث حين يُختطف الدين ويُعاد تفسيره بمنطق القوة والإقصاء والعنف، وهذا الاختطاف يتم دائماً بأدوات "الفهم" المُشوَّه.

ومسؤولية علماء الدين والمفكرين هنا ثقيلةٌ جداً، وتتجلّى في نقد التراث بمنهجيةٍ واضحة، حيث

التمييز بين الثوابت الدينية والاجتهادات البشرية التاريخية، كثيرٌ مما يُقدَّم اليوم بوصفه "أحكاماً دينية" هو في الحقيقة آراءٌ فقهية تاريخية نشأت في سياقات بعينها، أما سدّ الفراغ حين يصمت العلماء أمام الأسئلة الحرجة التي يطرحها الشباب، يذهب هذا الشباب إلى الفضاء الإلكتروني والمنتديات الراديكالية التي تقدّم إجاباتٍ جاهزة وقاطعة، والصمت ليس حياداً، بل هو انسحابٌ من الميدان.

أما الشجاعة الفكرية هي مراجعة الأفكار التي أُسيء فهمها تاريخياً حول الجهاد والعلاقة مع الآخر والحاكمية والولاء والبراء، ليس لإلغائها، بل لإعادة تأطيرها في سياقها الصحيح ووظيفتها الإنسانية.

تجريم الكراهية

» كيف يمكن التوازن بين حرية التعبير والمعتقد وبين تجريم خطاب الكراهية؟

هذه من أكثر المعضلات الفلسفية والقانونية تعقيداً في عصرنا، وتقف أمامها الديمقراطيات الكبرى حائرة، والإجابة الأمينة أن لا توازن مثالياً، لكن ثمة معايير يمكن الاستناد إليها.

أولاً: التمييز بين الانتقاد والتحريض حرية التعبير تشمل حق نقد الأفكار الدينية، والجدل العقائدي، والخلاف الفكري، لكنها لا تشمل التحريض على قتل أشخاص بسبب انتمائهم

د. محمود الخزاعي

الديني أو العرقي، الخط الفاصل هو: هل الكلام يستهدف فكرة أم إنساناً؟

ثانياً: التشريعات الذكية لا الفضفاضة التشريعات التي تجرّم خطاب الكراهية يجب أن تكون محددة وقابلة للقياس القانوني، وليست ذريعةً لإسكات أو منع النقد الديني المشروع.

ثالثاً: دور المجتمع المدني والقانون وحده لا يكفي، حيث المجتمع المدني النشط، والإعلام المسؤول، والمنابر الأكاديمية، هي الخط الأول في مواجهة خطاب الكراهية، أما القانون فهو الخط الثاني والأخير.

التعليم والإعلام

» ما دور التعليم والإعلام في بناء جيل يؤمن بالتنوع والتعايش؟

التعليم والإعلام هما أقوى سلاحين في مواجهة التطرف والانغلاق، وفي الوقت ذاته أخطر أداتين إن أُسيء استخدامهما، على صعيد التعليم، يوجد المناهج التي تُقدّم الآخر المختلف دائماً بوصفه تهديداً أو خصماً تزرع بذور الإقصاء في عقول الأطفال قبل أن يختاروا بأنفسهم، أما

التعليم الجيد يُنمّي التفكير النقدي، أي القدرة على التساؤل والتمحيص ورفض التلقين الأعمى، وهذا بحد ذاته حصانةٌ ضد التطرف، أما إدراج مواضيع حوار الأديان والثقافات وتاريخ التسامح الإنساني في المناهج، ليس ترفاً فكرياً بل ضرورةٌ وقائية.

وعلى صعيد الإعلام الذي يحوّل قضايا الأقليات والأديان إلى "أزمات" مستمرة يُغذّي الاحتقان، حيث الروايات الإيجابية والشخصيات المُلهِمة من مختلف خلفيات التنوع لا تُنشر إلا نادراً، أما منصات التواصل الاجتماعي باتت البيئة الأولى التي يتلقى فيها الشباب أفكارهم عن الآخر، و مسؤولية هذه المنصات ليست إدارةً تقنية للمحتوى فحسب، بل هي مسؤوليةٌ حضارية.

المواطنة الحديثة

» كيف يمكن أن يُعزَّز مفهوم المواطنة بحيث يجمع كل المكونات من دون التأثير على الآخرين؟

مفهوم المواطنة الحديثة الراسخة لا يتعارض مع الهوية الدينية أو الثقافية، بل يحتضنها، والمشكلة تنشأ حين تُفهم المواطنة على أنها "ذوبان" في هوية سائدة، أو حين تُفهم الهوية الدينية على أنها "ولاء موازٍ" يُنافس الانتماء الوطني.

ولكن الحل في نموذج غراس مفاهيم المواطنة والتعددية، والحقوق المتساوية، والهويات المتعددة، حيث المواطنة تعني المساواة أمام القانون، وتكافؤ الفرص، وحرية اعتناق الدين، ولا تعني أن الجميع يجب أن يكونوا متشابهين. أما الانتماء الوطني فوقي لا إقصائي: حيث الوطن يتسع الجميع ويُجسّد تنوعهم كمصدر قوة لا كعبء، والتجارب الناجحة كنيوزيلندا وكندا تُثبت أن التعددية للهويات تُقوّي الوحدة الوطنية لا تُضعفها، أما خطاب الدولة الجامع: هو الخطاب الرسمي للدولة يجب يحترم دائماً.

الجماعات المتطرفة

» ما الأخطر الجماعات المتطرفة ذاتها، أم البيئة الفكرية التي تحضنها ؟

البيئة الفكرية والاجتماعية أخطر بكثير، أما الجماعات المتطرفة ظاهرةٌ، أما البيئة الحاضنة فهي العِلّة، حين تُعالج الظاهرة فقط دون معالجة العلة، تظهر جماعاتٌ جديدة من الفراغ ذاته. وهذا ما أثبته التاريخ مراراً، أما البيئة الحاضنة تتشكّل من الوضع الاجتماعي والاقتصادي، حيث الشباب الذي لا يرى له مستقبلاً يكون أكثر قابليةً للاستقطاب، أما الفراغ الهوياتي من يبحث عن معنى وانتماء وكرامة، وهو لا يجدها في محيطه، يجدها في الجماعة المتطرفة التي تمنحه "مشروعاً" و "رفقة" و "يقيناً"، أما غياب الخطاب البديل حين يكون الخطاب الديني باهتاً وغير مُقنع، يملأ الخطابُ الراديكالي الفراغَ بحيويةٍ مُصطنعة، لذلك المقاربة ضروريةٌ لكنها لا تكفي، لان المعركة الحقيقية هي في الفصول الدراسية، والأسرة، والأحياء والسكنية والمجتمع، ومنصات التواصل الاجتماعي.

التمسك بالدين

» كيف نُفرّق بين التمسك الحقيقي بالدين والغلو المُحوَّل إلى أداة إقصاء وكراهية؟

المعيار ليس في كمية الالتزام الديني، فالأكثر التزاماً ليس بالضرورة الأكثر تطرفاً، و المعيار الحقيقي يكمن في الأثر الإنساني للتدين، وهنا لا بد الإشارة إلى أن التمسك الحقيقي بالدين، ينتج إنساناً أكثر رحمة، ويعمق الانتماء الإنساني المشترك، ويحفز البناء والإسهام، ويعلم اليقين الداخلي دون حاجة لفرضه، وينظر لاختلاف الآخر كواقع إنساني، وفي المقابل الغلو التطرف ينتج إنساناً أكثر حدة وإقصاء، ويضيق دائرة "المقبل والمرفوض"، ويحفز على الانسحاب والمواجهة، ويسعى لعرض البقين على الآخرين بالقوة، وينظر لاختلاف الآخر كخطر وجودي.

يشار إلى أن النبي محمد ﷺ قال: "إنّ الدين يُسر، ولن يُشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه". هذه القاعدة وحدها كافيةٌ لتكون ميزاناً: كل تديّنٍ يُنتج عسراً ويضيق على الناس هو تديّنٌ خرج عن طبيعته الأصيلة.

تمكين العقلاء

» ما الرسالة التي يجب أن يُوجّهها قادة الأديان للعالم اليوم؟

الرسالة التي يجب أن يُوجّهها قادة الأديان اليوم تتجاوز الكلمات المُعلَنة في المؤتمرات إلى شهادةٍ حيّة وقدوةٍ واضحة، فلم يعد الناس يستمعون إلى من يقول فقط، بل إلى من يعيش ما يقول، حيث الرسالة الجوهرية ينبغي أن تقوم على، أولاً: الاعتراف قبل الدعوة أن يعترف قادة الأديان بصراحة بأن باسم الدين ارتُكبت جرائم تاريخية، وأن هذا الاعتراف ليس ضعفاً بل هو نضجٌ أخلاقي يُعيد ثقة الناس الديانات التي اعترفت بأخطائها التاريخية اكتسبت مصداقيةً أعمق، و ثانياً: التضامن الإنساني الحي أن يقف رجل الدين إلى جانب المضطهدين بغضّ النظر عن انتمائهم، حين يدافع الشيخ عن حق المسيحي، ويدافع القسّ عن كرامة المسلم، تصبح هذه لحظاتٌ أعمق أثراً من 1000 خطبة، ثالثاً: التأكيد على الأديان كمشاريع بناء تذكير العالم بأن الحضارة الإنسانية قامت أساساً على كتفَي الإيمان والعقل معاً، وأن أعظم ما أنتجه البشر من فنٍّ وعلمٍ وعمارةٍ وأخلاق كان في حقبٍ تشرّب أصحابها بروح دينٍ حقيقي، لا بأيديولوجيا متصلّبة.

خلاصة القول، أن الأديان لم تكن يوماً مشكلةً، لكنها كانت دائماً حلاً حين قادها عقلاءُ يجمعون بين رسوخ الإيمان ورحابة الإنسانية، حيث التحدي اليوم ليس في الدين نفسه، بل في إعادة تمكين هؤلاء العقلاء من المنابر والمؤسسات وقلوب الشباب.